

صور الممدوح في شعر ابن زمرك الأندلسي

م.د أنسام يونس حماد

دكتوراه في الأدب العربي/النقد القديم

الجامعة العراقية/كلية التربية للبنات

[Ansam.y.hammad@aliraqia.edu.iq](mailto:Ansam.y.hammad@aliraqia.edu.iq)

مجلة دراسات العلوم  
الإسلامية

## صور الممدوح في شعر ابن زمرك الأندلسي

م.د أنسام يونس حماد

دكتوراه في الأدب العربي/النقد القديم

الجامعة العراقية/كلية التربية للبنات

### الملخص

يعد شعر ابن زمرك الأندلسي مادة غنية جديرة بالدراسة والبحث، لما عكسه نتاجه الشعري من قدرة على تصريف المعاني، وكفاءة في تكييف الأساليب، مما جعله قيمة أدبية والتاريخية إذ كان شعر ابن زمرك الأندلسي تصويراً للأحداث المتنوعة في ظل خلفاء وسلاطين دولة بني الأحمر، فقد لازم شاعرنا السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله سبعة وثلاثين عاماً، واستمر ابن زمرك الأندلسي وزيراً لكل من السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني والسلطان محمد السابع وكان انعكاس هذه المكانة السياسية نصوص شعرية زاخرة بالصور المدحية التي شكلت الجزء الأكبر من نتاج ابن زمرك الشعري فالمدح هو السبيل لمخاطبة الحكام من ملوك وخلفاء ومن هم دونهم من ذوي الوجاهة والسلطان، والثناء عليهم بالصفات الحسنة. كلمات مفتاحية: الشعر الأندلسي، ابن زمرك، دولة بني الأحمر، الممدوح.

### Abstract:

The poetry of Ibn Zamrak Al-Andalusi is a rich material worthy of study and research, because his poetic production reflects the ability to conjugate meanings and the efficiency in adapting styles, which made it of literary and historical value. Sultan Muhammad V, known as the Rich in God, for thirty-seven years, and Ibn Zamrak Al-Andalusi continued as minister to both Sultan Abu Al-Hajjaj Yusuf II and Sultan Muhammad VII. The reflection of this political status was poetic texts full of praising images that formed the largest part of Ibn Zamrak's poetic production. Praise is the way to address the rulers of the world. Kings, caliphs, and those below them who have prestige and authority, and praise them with good qualities.

Keywords: Andalusian poetry, Ibn Zamrak, the state of Bani al-Ahmar, al-Mamdouh.

مجلة دراسات العلوم  
الإسلامية

## المقدمة

شهد القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تقدماً ملحوظاً في مجالي الشعر والنثر، ساعد على نموه ونضجه خلفاء وسلطين البيت النصري، فقد اشتهر السلطان الغني بالله بحماية الآداب والفنون والعلوم ورعايتها على حذو أبيه السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، وكذلك السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني، والسلطان محمد السابع.

وكان شعر ابن زمرك الأندلسي تصويراً للأحداث المتنوعة في ظل هؤلاء الخلفاء والسلطين، فقد لازم شاعرنا السلطان محمد الخامس الملقب بالغي بالله سبعة وثلاثين عاماً، وفي ذلك يقول: "خدمته - أي الغني بالله - سبعة وثلاثين سنة: ثلاثاً بالمغرب، وباقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً<sup>1</sup>، واستمر ابن زمرك الأندلسي وزيراً لكل من السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني والسلطان محمد السابع وكان انعكاس هذه المكانة السياسية نصوص شعرية زاخرة بالصور المدحية التي شكلت الجزء الأكبر من نتاج ابن زمرك الشعري فالمدح هو السبيل لمخاطبة الحكام من ملوك وخلفاء ومن هم دونهم من ذوي الوجاهة والسلطان، والثناء عليهم بالصفات الحسنة سواء كان ذلك بحق أم بغير حق، فليس المهم عند أغلب الشعراء هو أن يكون الممدوح مصداقاً حقيقياً لما يمدح به، بل المهم هو استدرار الأموال والعطايا منه<sup>2</sup>.

وعليه فالمدح عند الشعراء يأتي على "ضربين: الأول - وهو قليل - نابع من قرارة النفس، و يتصف بالصدق والإخلاص والود والنزاهة والبعد عن الخضوع والخنوع، والثاني - وهو الكثير - صادر من طرف اللسان يتسم بالكذب والمبالغة والتذلل و إراقة ماء الوجه والسؤال، ونال غرض المدح كغيره من الأغراض الشعرية الأخرى اهتمام النقاد العرب، فوضّعوا شروطاً وقواعد يسلكها الشاعر عند نظمه في هذا الغرض الشعري<sup>3</sup>.

## التمهيد

ابن زمرك الأندلسي (733 - 797 هـ)

هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زمرك وبابن زمرك بفتح الزاي أو ضمها، كانت أصول أسرته من شرقي الأندلس، وسكن أسلافهم غرناطة في ريبض البيازين<sup>4</sup>. ولد ابن زمرك الأندلسي في الرابع عشر من شوال عام 733 هـ الموافق التاسع والعشرين من يونيو من عام 1333 م، وكانت أسرته متواضعة الحال، ويبدو أن أباه لم يكن من ذوي السلطان ولا من ذوي العلم والمكانة الاجتماعية المرموقة؛ ليذكر وتتناقل أخباره الكتب والرواة، حيث كان والده يحترف الحدادة، لكن قدرات شاعرنا الجسدية لم تكن تسعفه لاحتراف مهنة الأب، فقد نشأ ضِعياً<sup>5</sup>. وظهر نجمه كالشهاب يتوقد ذكاء، وهو ما حدا بوالده أن يوجهه نحو العلم والتعلم<sup>6</sup>.

(1) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1041 هـ) ت: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان ص. ب 10، ج 7، ص 167.

<sup>2</sup>الرجز نشأته، جمال نجم العبيدي، ص 275

<sup>3</sup>الأدب العربي في العصر الوسيط، د. ناظم رشيد، ص 39

<sup>4</sup>نفع الطيب، ج 7، ص 163.

<sup>5</sup>الصدر نفسه، ج 7، ص 165.

<sup>6</sup>تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ص 207.

نشأ ابن زمرك الأندلسي في هذه المدينة، وتلقى علومه وثقافته وظهر نبوغه في العلوم الشرعية والنحوية والأدبية وغيرها، التي حصلها على أيدي مجموعة من كبار علماء بني الأحمر في هذا الوقت، وقد أشار ابن الخطيب في الإحاطة إلى نوع العلم الذي أخذه عن كل منهم فقال: وقرأ العربية على الأستاذ رحلة الوقت في فنها أبي عبد الله بن الفخار، ثم على إمامها القاضي الشريف، إمام الفنون اللسانية، أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله بن مرزوق، فأخذ عنه كثيراً من الرواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقرئ عندما قدم رسولاً إلى الأندلس وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي منصور الزواوي، وروى عن جملة، منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدث أبو الحسن بن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله بن اللوشي، والمقرئ أبو عبد الله بن بيش. وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي التلمساني، واختص به اختصاصاً لم يخل فيه من إفادة مران، وحنكة في الصناعة<sup>1</sup>.

كان ابن زمرك الأندلسي كثير الترحال، فقد ترك مسقط رأسه متجهماً إلى عدوة المغرب لطلب العلم، مؤثراً التعلم على التعليم، وقد عاد بعد ذلك إلى مملكة بني الأحمر، واتصل بشيخه لسان الدين ابن الخطيب الذي ما إن ألقى إليه مقاليد الوزارة ٧٤٩هـ في عهد يوسف الأول أبي الحجاج والد الغني بالله سماه كاتباً في ديوانه وعمره لم يتجاوز سبعة عشر عاماً<sup>2</sup>. وقد مكث ابن زمرك على حاله هذا كاتباً في البلاط الملكي مدة خمس سنوات، حتى عام ٧٦٠هـ وهو العام الذي شهد ثورة على حكم الغني بالله وعلى إثرها فر هارباً إلى عدوة المغرب حيث السلطان أبي سالم المريني الذي أحسن وفادته واستقبله أحسن استقبال<sup>3</sup>.

لحق ابن زمرك بسلطانه المخلوع إلى عدوة المغرب، وظل قريباً منه، حتى هش له السلطان النصري، وأنس به، ولما رجع السلطان إلى مسقط رأسه بعد أن استرد ملكه المفقود رعى له هذا الصنيع اتجاهه، وعقب استقرار الأمور في المملكة الغرناطية أصدر مرسوماً سلطانياً، جدد فيه الوزارة للسان الدين بن الخطيب وتعيين ابن زمرك كاتب سره وذلك في عام ٧٦٣هـ، وظل في هذا المنصب إلى أن جاء عام ٧٧٣هـ، الذي شهد حدثاً خطيراً، غير مسار الحياة السياسية في مملكة بني الأحمر، وهو فرار الوزير لسان الدين بن الخطيب إلى المغرب، تاركاً مملكة بني الأحمر إلى تلمسان حيث كان السلطان عبد العزيز المريني يقيم، وكان ملك المغرب آنذاك، وذلك بتفاهم سابق بينهما فقصده إليها ابن الخطيب واستقبله السلطان بحفاوة، وأنزله أكرم منزل، وبعثه سفيراً إلى الأندلس ليسعى في استقدام أسرة الوزير المنفي، فأتى بها معززة مكرمة<sup>4</sup>.

المبحث الأول: صورة الممدوح الشجاع

إن الدراسات النفسية الحديثة تشير بوضوح إلى أن الشجاعة هي واحدة من ركائز المنظومة القيمية للشخصية العربية فقد تم الاحتفاء بهذه القيمة وبشكل واضح عبر مجمل الموروث العربي في الأدب عموماً والشعر على وجه الخصوص، إذ يمكن أن يجد الباحث الكثير من الشواهد الشعرية التي تمجد الشجاعة وتتغنى بها وقد تم هذا الأمر في الكثير من الأحيان عبر باب المديح والذي يتوخى إبراز الصفات الحمودة في شخصية الممدوح وقد وجدنا إن هذا المدح يتم بصورة طبيعية في مواضع كثيرة ولكننا وجدنا أيضاً أن هناك من يغالي في إظهار صفة الشجاعة الجسدية والمعنوية والنفسية عند من يمدح وقد يصل إلى درجة الغلو في

<sup>1</sup> الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ج2، ص 302 - 303.

<sup>2</sup> ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 140.

<sup>3</sup> نفع الطيب، ج7، ص167.

<sup>4</sup> نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبدالله عنان، ج7، ص476

هذه المبالغة، ويعد ابن زمرك الأندلسي من الشعراء الذين نَحَّجُو سبيل الغلو والمبالغة في وصف شجاعة من يمدح ودليلنا على ذلك تتبعنا لما ورد في أثره الشعري إذ نجدُه ينتقي صوراً ترسم بألوان المبالغة وهو يصور شجاعة الخليفة إذ يقول<sup>1</sup>:

أمكائراً شهب السَّماء أسنة      من منكما نصر الإلآة وينصر  
هيهات ما هزل الحديث كجده      الأمر أوضح والحقيقة اظهر  
عودت نصر الله ياملك الهدى      وهو الجزاء لقوله: إن تنصروا<sup>2</sup>

في هذه المقطوعة تشهد ابن زمرك، وهو ينظر إلى السماء هذه المرة فينشأ مقارنة فيها شيئاً من المبالغة بين الشهب الساقطة على الأرض والأسنة حيث يصرح أن رماح جيش الخليفة تكاد تتفوق في العدد على شهب السماء وبما أن الشهب في الخيال العربي الإسلامي إنما هي أدوات لرحم الشياطين ونصرة الحق نرى الشاعر يتساءل عن أمر يجده الكثيرون في غاية المنطقية، ولكن غلو ابن زمرك يشكك في هذه المنطقية وهذا الأمر يتمثل في تراتبية من ينصر الله تعالى، الشهب الساقطة أم رماح الخليفة. وفي موضع آخر نجد ابن زمرك، وهو يحاول أن يوصل إلى ذهن من يخاطبه صورة مركبة عن واحدة من المواقف التي يمكن أن تشير إلى شجاعة الخليفة فنجدُه يقول<sup>3</sup>:

بموقف بأس احرص الغلب هولة      فكان لسان السيف أفصح مقولا  
خطيب حسام كلما خاصم العدى      بيوم جلاذ جد فيهم وجدلا  
يكاد يذيب البأس رقرق متنه      فلولا ندى كف الإمام تسيلا

في هذه المقطوعة التي تعتمد على البعد التشكيلي يبدأ الشاعر صورته بموقف المعركة من معارك الخليفة حيث يصرح بان لسان سيوف الخليفة حدثها وبطشها قد أحرصت أسنة جميع من حضر تلك المعركة فوق سيوف الممدوح بمائل خطبة قوية موجه إلى أعداء الخليفة في أيام المواجهات إلى جانب المبالغة في وصف قدرة سيوف الخليفة فان الباحث يرى أن الشاعر هنا قد اعتمد في بناء صورته على نوع من المقارنة بين اشتغالات ذات طابع صوتي خرس اللسان / العدى، لسان السيف / شجاعة الممدوح) وفي هذا قدر واضح من المبالغة في إكساب الممدوح شجاعة فيها شيئاً من الغلو عبر نوع من المقارنة الصوتية. وتصادف الشاعر في مناسبة أخرى وهو يستعمل المفارقة في خلق نوع من المبالغة الشعرية التي نجد فيها قدراً ملحوظاً من الغرابة، ناهيك عن اعتمادها على التشكيل الصوري المعقد للوصول إلى الغرض الشعري إذ نجدُه يقول<sup>4</sup>:

الله سيفك ما تسهد جفنة      الا ونام الخلق في تسهيده  
وإذا تجرد في الوغى من غمده      كانت رؤوس الكفر بعض عموده

فابن زمرك هنا يتخيل كينونة بشرية لسيف الخليفة فهذا السيف لا يكاد ينام ولا يسهر له جفن إلا بعد أن تنام الخلائق كناية عن بثه للأمن فهو مغرق في سهره على أمن الرعية وهذا السيف إذا ما خرج من غمده في ساحات الوغى فأن رؤوس الأعداء الكفار ستكون عمدا له ويرى الباحث أن المبالغة في هذا الموضع إنما تقدم للمتلقي في صورة تخيلية ذات طابع تشكيلي مركب خاصة في

<sup>1</sup> ديوان ابن زمرك الأندلسي، محمد توفيق النيفر، دار المغرب الإسلامي، ط 1، 2003، ص 45.

<sup>2</sup> ديوان ابن زمرك الأندلسي: ص 44 - 45.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 52.

<sup>4</sup> ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص 71.

منح السيف هذه القدرة على التحول الدراماتيكي الذي فيه قدر كبير من المبالغة ونجد من خلال دراستنا لأثر ابن زمرك الشعري أن هناك نوعاً آخر من المبالغة يعتمد هذه المرة على الغلو في إظهار الموافقة والتأييد والتصديق لكل ما يصدر عن الخليفة من أفعال وأقوال من أجل إظهار إقدامه وشجاعته في إتيان الشديد من الأمور حيث يقول:<sup>1</sup>

تعدك يوم الحرب منجى وملجأً      وتدعوك يوم السلم مولى وموثلاً  
وكم بلدة للكفر أنزلت أهلها      وعوضت للناقوس فيها مهللاً  
وطوقت فيها السيف من حان حتفه      وأعدمت تماثلاً بها وممثلاً

### المبحث الثاني: صورة الممدوح الكريم

أن تبجيل صفة الكرم ووصفه خصلة أخلاقية أمر له وقع كبير في تكوين المعطيات الأخلاقية للشخصية العربية حيث نجد الكثير مما قيل شعراً ونثراً في تمجيد الكرم بمظاهره المختلفة، على أن الباحث يجد أن هناك مواضع أخرى تصادف فيها المبالغة والغلو في تمجيد هذه الخصلة وإذا ما كان المادح ممن يطمح إلى نيل رضا الممدوح الذي قد يكون في بعض الأحيان واهباً لمن يظهر له الولاء والطاعة بل أن الباحث يرى أن بعض الممدوحين قد يتقصدون كرماً يسعون عبره إلى الفخر والتباهي، وقد كان الشعراء يذهبون إلى المبالغة في مدح خصلة الكرم والغلو فيه عبر مقارنته بمعطيات مختلفة بعضها يتعلق بالمرويات القديمة المأثورة وبعضها يرتكز على عوامل أخرى كالطبيعة وبعض الأمور الحسية ومن ذلك ما نجده جلياً في قول ابن زمرك مادحا الغني بالله:<sup>2</sup>

تعلم منك الغيث شيمة جوده      فلولا ندى كفيك كان مبخرلاً  
فما جاد إلا عابساً متجهماً      وما جدت إلا باسماً متهللاً

في هذه المقطوعة يبدو غلو ابن زمرك بينا إلى حد كبير إذ إنه يعقد مقارنة تبدو غير ممكنة عقلاً ومنطقاً بين المطر بوصفه معطى طبيعياً أشبعت دلالته دراسة وتمحيصاً وبين ممدوحه الخليفة الغني بالله، وهو صاحب الرأي في بني الأحمر بمنح وبنوع ونرى، إن الشاعر كان ميالاً لنيل عطايا الممدوح مما جعله يسلك طريق المبالغة في مدحه، فنجد الشاعر يصرح أن المطر قد تعلم الجود من الخليفة فهو (المطر) بدون معرفته بسخاء يدي الخليفة لوصف بالبخل ويوغل الشاعر في رسم ملامح صورة مبالغة تبدو نادرة فيقول إن المطر لا يوجد إلا بعد التحهم وهو ما يمكن إن يعبر عنه بالغيوم المدلّمة في حين أن الممدوح يهب العطايا وهو باسم الوجه ويرى الباحث أن هذه الصورة مؤطرة بغلو فيه شيئاً من الغرابة والندرة فالمقارنة بين المطر والكرم .. أمر مستساغ ومطروق ولكن القول أن المطر يتعلم الكرم من الممدوح أمر يدنو من باب المبالغة التي لا يمكن أن تفهم إلا في إطار رغبة الشاعر للتقرب من الخليفة لنيل عطايه والزلفى لديه. ويرى الباحث أن الطبيعة العامة للشخصية يمكن أن تؤدي دوراً كبيراً في الطريقة التي تصوغ بها تلك الشخصية خطاباً التواصل قدرتها على التواصل مع الآخرين وذلك من عدة نواح من بينها الميل إلى المنطقية أو المغالاة أو الصدق أو الكذب وما إلى ذلك من أمور مشابهاً وإذا ما كانت تلك الشخصية تمتهن الشعر وتعرف به مثل ابن زمرك الأندلسي فإن نتاجها الشعري إذا ما اتسم بالغلو والمبالغة فإن هذا الأمر إنما يرجع إلى تلك الطبيعة المشار إليها بملاحمها النفسية والمعرفية والاجتماعية ونرى أن الشاعر كان أسير حياة جعلت منه أقرب إلى ركوب المبالغة وامتطائها ففي موضع آخر نجده يقول مادحا:<sup>3</sup>

<sup>1</sup>ديوان ابن زمرك: ص 51 - 52.

<sup>2</sup>ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص 54.

<sup>3</sup>ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص 72.

كف الغني بربه سالت به من فيض أنمله المباركة البخور  
يهدى العبيد مع العشية والبكور نعماً يقصر وصفها شكر الشكور

في هذه المقطوعة يكمل ابن زمرك حاجته إلى إرضاء الممدوح عبر المبالغة في وصف كرمه فهو يرسم هنا لوحة أسطورية لكف الخليفة الندي الذي تسيل البحار من أنامله المباركة كيف لا وان الممدوح يهب عطايه إلى مواليه صباحاً ومساءً وبطريقة لا يمكن لأحد أن يشكره عليها، ويرى الباحث أن اللوحة المشار إليها قد تم تعظيم تفاصيلها عبر منظار المبالغة أي أن الشاعر لا ينظر إلى الخليفة بالعين التقليدية بل عبر منظار المبالغة التي يعظم كل شيء إلى درجة تجعل البحار العظيمة تسيل من أصابع الخليفة وهذه مبالغة لا يمكن أن تخفى على أحد ويجد الباحث أن ابن زمرك لم يخالف كثيراً سابقه من الشعراء في إنتاج وتبني مقارنة علائقية بين البحر والكرم عبر استثمار الإشارات الدلالية الراشحة عن البحر ورسوخ تلك الدلالات في الذهنية العربية الأندلسية ولكن الشاعر خالفهم في أمر آخر يتمثل في التلاعب بالمكونات المنطقية للصورة المؤطرة بالأبعاد الدلالية لمفاهيم البحر والغمام فجده يقول:<sup>1</sup>

هيهات كفك يم جود زاخر كم بيت رش غمامة أو فيض يم  
أهديتني بالأمس يا ملك الغلي زهراً وروضاً من جنى روض الكريم

وهنا يصور الشاعر كف الخليفة المعطاء على أنها كالبجر الزاخر، وهذا الاستخدام يخدم الشاعر حين يجري مقارنة بين رش الغمام كناية عن المطر وبين فيض البحار كناية عن كرم الخليفة ونرى أن الشاعر وهو يقدم هذه الصورة المغالية التي تعتمد على التقليل من شأن الغمام أمام صورة البحر الذي يماثل كف الخليفة فهو إنما يبلور صورة شعرية فيها قدر كبير من المبالغة والغلو ويستمر ابن زمرك الأندلسي في أعلاء شأن المبالغة والغلو في وصف أفعال وخصال ممدوحه ، والتي تصل في بعض الأحيان إلى حد مخالفة المنطق والرغبة الإنسانية في التصور العقلائي للأشياء وكل ذلك سعياً منه لإرضاء ممدوحه وجعله متيقناً من أن الشاعر صاحب المنصب السياسي موالي ومخلص له في وسط جو مشحون بالخلافات والخيانات حيث نجده يقول:<sup>2</sup>

عجباً لوادي الخرس قد سال انعماً فلم ندر واد ماجرى فيه ام بحر  
وردنا به للحدود كف خليفة تجرر أذيال الغمام ولا فخر  
ويا بعد ما بين الغمام وكفه فأتمل كفيه لنا أبحر عشر

المبحث الثالث: صورة الممدوح المؤمن

اتجه ابن زمرك إلى إضفاء صفة العبد المؤمن التقي على ممدوحه، وتسليط الضوء على الصفات الإيمانية فيه وهي من الصور المحببة في نفوس السلاطين والأمراء، يقول:<sup>3</sup>

وصَلَّتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ دَارَكََا وَرَبُّكَ بِاللُّطْفِ الْمُوَاصِلِ دَارَكََا  
وَعِنْدَكَ لِلتَّنْسِلِيمِ لِلَّهِ جُنَّةٌ بِهَا اللَّهُ مِمَّا تَنْقِي قَدْ أَجَارَكََا  
لَأَنَّ إِلَهَ الْعَرْشِ وَلَاكَ أَمْرُهُ وَسَمَّاكَ فِيمَا قَدْ أَتَاكَ مُبَارَكََا

<sup>1</sup>ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص 73 – 79.

<sup>2</sup>المصدر نفسه: ص 70.

<sup>3</sup>ديوان ابن زمرك: ص 68.

وَحَقَّقَ مَا تَرْجُوهُ مِنْ نَصْرِ دِينِهِ  
وَحَاشَاكَ أَنْ لَا تَرْضَى حُكْمَ خَالِقِ  
وَتَسْمُهُ تَوْحِيدِ يَنْمُ بِهَا الرِّضَا  
صَبَّرْتَ لِتُعْلِي دِينَ أَكْرَمِ شَافِعِ  
جَبَّرْتَ قُلُوبًا قَدْ شَرَحَتْ صُدُورَهَا  
فَبَشَّرَى بِهَا مِنْ عَوْدَةٍ عَادَ حَالَهَا  
فَلَا زِلْتَ بِنَجِي الْعَوَزِ مِنْ شَجَرِ الرِّضَا  
تَعَالَى إِلَهُ الْمُرْتَجَى وَتَبَارَكَ  
بِمَا شَاءَ مِنْ أَقْدَارِهِ الْعُزَّ زَارِكَا\*  
يَكُونُ بِهَا خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَارِكَا  
فَعَلَى بِهَا الرَّبُّ الْكَرِيمُ مَنَارِكَا  
فَلَا زَالَ لُطْفُ اللَّهِ فِيهَا صِدَارِكَا  
لَأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ أَلْفَتِ أَقْبَادَارِكَا  
وَتَعْمُرُ أَلْطَافُ إِلَهِ دِيَارِكَا

يسترسل الشاعر في رسم الصفات الدينية للممدوح، فالرضا والتسليم بامر الله والصبر والتوحيد له الجزاء الأمثل والأكمل من الله سبحانه .

ويروم ابن زمرك الأندلسي إلى تأكيد حقيقة مفادها أن ممدوحه نسيب حسيب، تمتد جذوره إلى الأنصار<sup>1</sup>، الذين صحبوا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في غزواته التي كان لها الدور الأكبر في تثبيت دعائم هذا الدين الحنيف، فكانوا حديدين بالفوز بدعوتهم لهم ولذريتهم، ويخص ابن زمرك من الأنصار سيدنا سعد بن عبادَةَ الأنصاري رضي الله عنه الذي قدم نفسه فداءً وتضحية من أجل خدمة الدعوة الإسلامية، ويشيد بدور أجداده مع النبي الكريم، ويشير إلى ثناء القرآن الكريم على هؤلاء الأنصار<sup>2</sup> ليؤكد العمق الديني والإيماني للممدوح، اسمعه يقول<sup>3</sup>:

هُمْ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ قَدْ شَاذَهَا  
وَأَدَا نَظَرَتْ لِحُلْفِهِ وَحُلْفَتِهِ  
أَيُّ يُضَاهِيهِ وَيُشْبِهُ فَخَرَهُ  
الْقَوْمُ أَهْلَ اللَّهِ حِزْبُ رَسُولِهِ  
مَادَا يُجَبَّرُ شَاعِرٌ فِي مَدْحِهِمْ  
وَصِفَاتُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ  
شَرَفٌ عَلَى رَعْمِ الزَّمَانِ أَصِيلُ  
فَأَلْبَدُزُ نَمُّ وَالرِّيَاضُ بَلِيلُ  
فَخَرُّ وَأَنْصَارُ النَّبِيِّ قَبِيلُ؟  
فِي وَصْفِهِمْ قَدْ أَحْكَمَ التَّنْزِيلُ  
وَمَدِيحُهُمْ قَدْ نَصَّهُ جَبْرِيْلُ  
جَاءَتْ بِهَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

#### الخاتمة

- 1) يحتل غرض المديح الجزء الأكبر في ديوان ابن زمرك الأندلسي، ونتيجة ذلك شكلت الصورة المدحية الحيز الأوسع من نتاجه الشعري وقد اتسمت هذه الصور بالمنطوية، فهي لم تخرج عما ألف في الشعر العربي القديم، بيد أنها عبرت عن تجربة شعورية ونفسية ناجمة عن علاقات شخصية وثيقة الصلة بالممدوح تارة، وارتبطت بالتكسب واستدرار الأموال والعطايا من الممدوح تارة أخرى.
- 2) شكل مضمون الشجاعة المرتبة الأولى في رسم صورة الممدوح ولعل ذلك ناتج عن امتلاكه قيمة اجتماعية عليا فضلا عن حب السلاطين والأمراء على أن يوصفوا بمثل هذه الصفات للدلالة على عظمة سلطانتهم وقوتهم، وفيه جانب إعلامي في إظهار قوتهم أمام العدو، لذلك نجد الشاعر اهتم بهذا المضمون أكثر من غيره.

<sup>1</sup> اللوحة البديرية في الدولة النصرية، لسان الدين بن الخطيب ص 21، ومقدمة ابن خلدون، ج 4، ص 170.

<sup>2</sup> معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ط 1، 1980، ص 383. و نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ج 7، ص 38.

<sup>3</sup> ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص 307.



- (3) جاءت صورة الكرم في المرتبة الثانية وذلك لما تحمله من قيم اجتماعية، ولكن تكاد تنحصر صور الكرم في التشبيهات العادية من تشبيه الممدوح بالبحر والمطر وان كانا يحملان دلالة الكثرة والشمول ولكن كنا نبحت عن الجودة في الوصف وهذا ما عهدناه في خيال الأندلسي إلا أن مثل هذه الصور المبتكرة كانت نادرة.
- (4) حاول الشاعر المزج بين مجموعة من القيم في وصف ممدوحة، وإحاطتها جميعا بالدين والتقوى لإضفاء هالة دينية على الممدوح وكأنما كل تلك الصفات كانت في خدمة الدين.

## المصادر والمراجع

- (1) ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي، ت: د. محمد توفيق النفير، دار الغرب الإسلامي.
- (2) الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ١٤٢٤ هـ.
- (3) الأدب العربي في العصر الوسيط: د. ناظم رشيد، الموصل، دار الكتب للطباعة و النشر، 1992.
- (4) تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف - مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م.
- (5) الرجز نشأته جمال نجم العبيدي، مكتبة الاديب البغدادية.
- (6) في الادب الاندلسي، محمد رضوان الداية، دمشق. دار الفكر، ط1، 2000م.
- (7) اللوحة البدرية في الدولة النصرية، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ). مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: أ. خليل شحادة مراجعة: د. سهيل زكار الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- (8) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ط1، 1980.
- (9) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤١هـ) ت: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان .
- (10) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1966م.